إبادة الكتب

تدمير الكتب والمكتبات برعاية الأنظمة السياسية في القرن العشرين(*)

عرض ومراجعة

د. عبدالرحمن فراج

أستاذ علم المعلومات المساعد
قسم علوم المعلومات – جامعة بني سويف
aafarrag@hotmail.com

قليلة بل نادرة هي الكتب المتخصصة في مجال المكتبات والمعلومات، ذات الاتجاهات الفكرية والتاريخية المعاصرة؛ ومن بينها هذا الكتاب المهم الصادر عن سلسلة "عالم المعرفة" الكويتية، والذي يهدف في الأساس إلى شرح أسباب تدمير النظم السياسية في القرن العشرين للكتب والمكتبات، وماهية الآثار بعيدة المدى لهذا التدمير. وقد أثرى الكتاب معلومات ووجهات نظر متعددة حرصت المؤلفة على البحث فيها من حقول معرفية متنوعة، مثل: التاريخ، والأدب، والعلوم السياسية، والعلاقات الدولية، وعلم النفس، والأخلاقيات، والاتصالات، فضلا عن تخصص المكتبات والمعلومات. والكتاب، بصفة عامة، أقرب إلى الشمول في تغطيته التي خطها لنفسه، ويستهدف مجتمع الباحثين بصفة عامة، فضلا عن الجمهور العام.

توفر على إعداد الكتاب "ربيكا نوث" أستاذة برنامج علوم المكتبات والمعلومات بجامعة هاواي، والتي تنصب أبحاثها على مجالات الرقابة على المطبوعات، والحركة الفكرية، وعلم المكتبات، وتاريخ الكتب والمكتبات، والعلاقة بين التطرف والتدمير الثقافي. أما المترجم، فهو عاطف سيد عثمان، خريج قسم اللغة الإنجليزية بكلية الألسن – جامعة عين شمس عام 2001، والذي ترجم وشارك في ترجمة ومراجعة عدد من الكتب.

---

* نوث، ربيكا. إبادة الكتب: تدمير الكتب والمكتبات برعاية الأنظمة السياسية في القرن العشرين. الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، 2018. 375ص. (عالم المعرفة؛ 461).

تشتمل هذه الترجمة على 369 صفحة توزعت على تمهيد وتسعة فصول، فضلا عن مسردي الأعلام والمصطلحات، وقائمة مجمعة بمراجع ومصادر الفصول التسعة تحت عنوان "ببليوجرافيا"، وصفحة واحدة توفرت على التعريف بكل من مؤلفة الكتاب ومترجمه.

ترى المؤلفة، في الفصل الأول "الكتب والمكتبات وظاهرة الإبادة الإثنية"، أن هناك رابطة وثيقة بين مفهومي الإبادة الجماعية والإبادة الإثنية وبين إبادة الكتب، وأن هذا الأخير يعد أحد أنماط الانتهاكات الاجتماعية الثقافية التي ترتكب في أثناء الحروب والاضطرابات الأهلية. وتؤكد المؤلفة هنا أنها تعتمد في رؤيتها لموضوع الكتاب على إطار نظري شامل يربط بين الإبادة الجماعية والعنف السياسي، ويعتمد هذا الإطار بدوره على فروع معرفية عديدة وتأويلات متعددة الأسباب.

ولكي يمكننا الإلمام بالدوافع التي تقف خلف تدمير الكتب والمكتبات، والمخاطر الثقافية والعلمية الناجمة عن ذلك؛ فإنه لابد من الإلمام بالاحتياجات الثقافية التي تلبيها الكتب والمكتبات، وهو موضوع الفصل الثاني "نشأة المكتبات ووظائفها". ويتعرض هذا الفصل لنشوء المكتبات في تاريخ البشرية، والوظائف والمسئوليات التي اضطلعت بها المكتبات طوال التاريخ، ودور المكتبة في حفظ الذاكرة الجمعية، والمكتبات واتساق المعتقدات، والمكتبات وترسيخها للنزعة القومية، ودور المكتبات في التنمية المجتمعية.

وتطرح المؤلفة في الفصل الثالث "إطار نظري لإبادة المكتبات"، إطار نظري لقراءة حملات إبادة الكتب والمكتبات من قبل النظم السياسية، وتعرض للعوامل التي تؤدي إلى الأنماط المشتركة لهذا التطرف الثقافي على مستوى العالم. وفضلا عن أسباب تدمير الكتب والمكتبات، يعرض الفصل للأيديولوجيات التي شجعت على ذلك في أنحاء مختلفة من العالم، فضلا عن النزعة القومية، والعسكرية العدوانية والإمبريالية، والعنصرية، والشيوعية، والزعامات المتطرفة.

وتعد الفصول الخمسة التالية، من الفصل الرابع إلى الثامن، دراسات حالة، عبارة عن رؤى تحليلية لحملات إبادة الكتب في القرن العشرين. وترى المؤلفة (ص 104) أن كل فصل من هذه الفصول محاولة لتفسير إبادة الكتب في بيئة معينة، مع التركيز على الظروف الاجتماعية والثقافية والاقتصادية والسياسية المؤثرة في نشأة الأيديولوجيات التي أدت إلى هذه الإبادة، ودور الزعامات المتطرفة في ذلك، ومصير المفكرين والبحث المعرفي في ظل تلك النظم السياسية، وتصور تلك النظم لوظيفة الكتب والمكتبات وأسباب استهدافها لها، وكيف وإلى أي مدى أبيدت الكتب، وكيف تم تسويغ ذلك من الناحية الأيديولوجية.

وكانت ألمانيا الهتلرية موضوع أولى دراسات الحالة هذه، وذلك في الفصل الرابع "ألمانيا النازية: العنصرية والقومية"، حيث ترى المؤلفة أنه ربما تكون ألمانيا الهتلرية الحالة المثالية التي يمكن أن نستشف من خلالها تدمير

الكتب والمكتبات في القرن العشرين. ويتعرض الفصل في ذلك لصعود النازية، ومعاداة السامية وتدمير اليهود، ومصير المكتبات الأوروبية، والبحث المعرفي والنازية، وتقييم الأضرار. ونرى أن حديث المؤلفة هنا عن معاداة السامية هنا قد فندته – كما هو معلوم – كثير من المصادر الغربية، وأثبتت أن كثيرًا من المعلومات ذات الصلة بهذا الموضوع أقرب إلى الاختلاق منها إلى الحقيقة. (انظر مثلا: جارودي، روجيه. الأساطير المؤسسة للسياسة الإسرائيلية. ترجمة محمد هشام. القاهرة: دار الشروق، 2002). والغريب أننا لم نجد تعليقًا حول ذلك من مترجم الكتاب أو محرره.

وتحدث الفصل الخامس "صربيا الكبرى"، عن الفظائع التي ارتكبها الصرب في يوغوسلافيا السابقة والتطهير العرقي والإبادة الإثنية للمسلمين وإرثهم الثقافي في هذه البلاد. وعلى حد قول المؤلفة " فإن الصرب لم يسعوا إلى محو دلائل الوجود المادي لعدوهم [؟] في منطقة ما فقط، بل أيضا محو الدعاوى الشخصية والسياسية وكل برهان يثبت المنجزات الثقافية للعدو وشرعية وجوده بوصفه شعبًا " (ص 143-144). وقد تناول هذا الفصل صعود القومية الصربية، والقومية [الصربية] وحراكها الدائم في تلك الفترة، وإبادة الكتب في كرواتيا، وإبادة الكتب في البوسنة.

وكان "العراق والكويت وسياسات الإجرام" هو موضوع الفصل السادس الذي يتعرض لأحد المآسي العربية الحديثة، والتي يمكن القول إن جراحها لم تندمل حتى الآن؛ فقد كانت من ناحية سببًا لانقسام الدول العربية وإهدار ثرواتها، ومن ناحية أخرى ازدادت هذه المأساة حدة بالنسبة للعراق إثر الاحتلال الأمريكي لها في أبريل 2003؛ وكأنه قدر لهذا البلد المنكوب أن يُبتلى مرتين، أولاهما على أيدي حكامه المستبدين، والأخرى على يد الاحتلال الغاشم. ولعله لو صدرت طبعة ثانية من هذا الكتاب، فلابد أن تشتمل على الفظائع المريعة التي ارتكبها جيش الاحتلال الأمريكي بحق البشر والبلاد من ناحية، وبحق الكتب والمكتبات والمواقع الثقافية التي لم يتم تدميرها فقط، وإنما تم نهبها وسلبها خارج البلاد. وعلى العموم، تعرض هذا الفصل للتفكك الاجتماعي والاقتصادي للبلاد وصعود البعثية، والطريق إلى الاستبداد، والانجراف الأيديولوجي والنزعة القومية، والحرب الإيرانية – العراقية (1980-1988) والتي تدعى بحرب الخليج الأولى، وعوامل غزو الكويت، وما حدث في أعقاب الغزو.

وتذكر المؤلفة في الفصل السابع "الثورة الثقافية الصينية"، أن الصين شهدت إبادة للكتب من قبل حكامها ومن قبل الآخرين على حد سواء (وذلك على يد اليابانيين في أثناء محاولتهم إخضاع الصين في ثلاثينيات وأربعينيات القرن العشرين). بيد أنه من الغريب ملاحظة المؤلفة في هذا الصدد أن "المؤشرات تدل على أن التدمير الذي مارسه الشيوعيون [في الصين] فاق القدر الذي أحدثته اليابان" (ص 214)؛ أي أن حكام بلاد ما

قد يكونون أكثر وبالًا عليها من أعدائهم. وتناول هذا الفصل وضع الصين قبل عام 1966 وهو العام الذي بدأت فيه الثورة الثقافية، ومصير الكتب والمكتبات، ومصير المثقفين في ظل هذه الثورة، وما حدث في أعقاب الثورة الثقافية وهو عدول الصين عنها ومحاسبة المسئولين عنها "بوصفها انحرافًا مفاجئًا عن الحالة السوية التي صممها فصيل من الأقلية" (ص 249).

وقد ختمت المؤلفة الفصل السابع بملاحظة مهمة وهي أنه "وفي النهاية يفترس هذا النظام شعبه نفسه وثقافته، وشعوبًا أخرى وثقافاتها " (ص 253). وكما كانت الثورة الثقافية في الصين الشيوعية سببًا في إبادة وتدمير الكتب في الصين، فقد كانت سببًا أيضا في إبادة الكنوز الثقافية لحضارة أخرى هي حضارة التبت الشبيهة بحضارة العصور الوسطى، وهو موضوع الفصل الثامن "التبت: ثقافة يحيق بها الخطر". والحقيقة أن هذا الفصل هو أطول فصول الكتاب (42 صفحة)، وتفيد المؤلفة بأنها أفردت مساحة للحديث عن الصين والتبت أكبر مما أفردت لدراسات الحالة الأخرى حتى تعطي تعقيدات الثورة الثقافية ما تستحق من عناية، ولعرض المدى الكامل لتراث التبت المكتوب قبل تناول قضية تدميره على يد الصين.

وترى المؤلفة في الفصل التاسع والأخير "صدام الأفكار"، وهو أقصر فصول هذا الكتاب (22 صفحة)، أن إبادة الكتب في القرن العشرين يعد مرآة للصراع بين الأيديولوجيات المتطرفة من جهة والنزعة الإنسية الديموقراطية ومبدأ ترافد الأمم من ناحية أخرى. ويركز هذا الفصل على تأثير الأيديولوجيا، وبصفة خاصة النزعتان القومية والاشتراكية، ودورها في نشأة الاستبداد، ومن ثم تدمير الآثار الإنسانية عامة والمواقع الثقافية خاصة والكتب والمكتبات بصفة أخص.

وهكذا يؤكد هذا الكتاب أنه مثلما يحدث للبشر، لم تسلم الكتب والمكتبات من حروب الإبادة والتدمير على مدار التاريخ، وبصفة خاصة خلال القرن العشرين الذي يوصف في العادة بأنه الأكثر دموية بين قرون التاريخ جميعًا.

نُشر الكتاب في أصله باللغة الإنجليزية عام 2003م عن طريق دار نشر "بريجر" Preager بالولايات المتحدة، بينما نشرت الترجمة العربية عام 2018م أي بعد حوالي 15 عامًا من نشر الكتاب الأصلي. و على الرغم من تماسك الكتاب كنص علمي ذي منحى تاريخي يقوم على إطار نظري واضح، فإنه ربما كان الآن في حاجة إلى طبعة ثانية تسلط الضوء على تجارب أخرى معاصرة لا يمكن التغاضي عنها في إبادة الكتب وغيرها من المواقع الثقافية وخاصة في عالمنا العربي.

●●●